معالم القرآن والسنة

مجلة محكمة تصدر عن كلية القرآن والسنة بالكلية الإسلامية الجامعية بماليزيا

A Refereed Journal Published by the Faculty of Quranic and Sunnah Studies
Islamic University College of Malaysia

ISSN 1823-4836 المجلد الأول، العدد الأول، ٢٠٠٥ (Vol.1 No.1 2005)

محتويات العدد

أبحاث اللغة العربية

القرآن الكريم: سجع أم فاصلة؟ ١١
سلمى أحمد

مادة التفسير إعداداً وتحريراً ٣٩
مجاهد مصطفى بهجت

تطبيقات دلالية في سورة البقرة ٥٧
أمة السلام علي السامي

تكامل العلوم الإنسانية مع المقررات الشرعية ٩٥
عادل محمد عبد العزيز العرباني

إسهامات السنة النبوية في بناء الحضارة الإنسانية ١٢٩
عفاف عبد الغفور حميد

ضوابط الرواية في ضوء القرآن الكريم: دراسة تحليلية ١٦٩
فتح الدين بيانوني

حديث ناقصات عقل ودين: إشكالية أسباب وحلول ٢١١
محمد أبو الليث الخيرآبادي

الإمام أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي ومنهجه في التأليف ٢٤١
محمد مستقيم بن محمد ظريف

أبحاث اللغة الملايوية

261 Tokoh Pendidik Al-Quran di Malaysia: Haji Muhammad Nor Haji Ibrahim Khairul Anuar Mohamad & Syed Ahmad Tarmizi Syed Omar

معالم القرآن والسنة
مجلة محكمة
السنة الأولى • العدد الأول • ٢٠٠٥

الدكتور فتح الدين بيانوني*

ضوابط الرواية في القرآن الكريم: دراسة تحليلية

المقدمة

إن من تعاليم الإسلام الرئيسة الأمر بنشر هذا الدين وتبليغه للعالمين، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧. ويقول عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»[٣]، وهذا الحديث نص في الأمر بتبليغ هذا الدين وشرائعه.

---

* قسم دراسات القرآن والسنة. كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا.

[٢] آل عمران: ١٠٤.

[٣] أخرجه البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. صحيح البخاري. تحقيق الدكتور مصطفى البغا. (ط٣. بيروت: دار ابن كثير. حديث رقم: ٣٢٧٤. ج٣ ص١٢٧٥.

وإن أول ما يجب تبليغه ونقله نصوص الوحي المعصوم في الكتاب والسنة، ولا بد لهذا النقل من منهج يسير عليه، وآداب وضوابط يلتزم بها، وقواعد يحتكم إليها، وذلك حتى يكون النقل سليما، والتبليغ كاملا.

وإن تعاليم الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم تعد المرجع الأساس لدارس العلوم الدينية، وذلك لكونها المصدر الرئيس للتشريع عند المسلمين، وتمثل المنهج الذي تربى عليه المسلمون الأوائل، وعملوا على تطبيقه في واقع حياتهم، واحتكموا إليه فيما يعرض لهم من مسائل وأمور.

ومن خصائص القرآن الكريم شمول تشريعاته وتعاليمه جميع أنواع المعارف والعلوم الدينية. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١]. فهذه الآية تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى ما ترك شيئا من أمر الدين إلا وقد دلنا عليه في القرآن، "إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يُتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٤]. فأجمل في هذه الآية وآية (النحل) ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾[٥]".[٦]

---

[١] القرآن، الأنعام ٦: ٣٨.

[٢] القرآن، النحل ١٦: ٨٩.

[٣] القرآن، النحل ١٦: ٤٤.

[٤] القرآن، الحشر ٥٩: ٧.

[٥] القرآن، المائدة ٥: ٣.

[٦] القرطبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد. ١٩٦٥. *الجامع لأحكام القرآن*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج٦ ص٤٢٠.

وستقوم هذه الدراسة بتلمس الضوابط المتعلقة بعملية الرواية في القرآن الكريم، وذلك من خلال دراسة استقرائية لآيات القرآن الكريم المتعلقة بهذا الموضوع. وتشتمل الدراسة على مقدمة -تتحدث عن أهمية الموضوع وسبب اختياره- وثلاثة مطالب: يعرف المطلب الأول منها بمصطلح "ضوابط الرواية" وهو مصطلح جديد لم تتناوله كتب المصطلح فيما أعلم، ويتناول الثاني منها الضوابط ذات العلاقة المباشرة بعملية الرواية، بينما يعرض المطلب الثالث للضوابط العامة التي لا تختص بعملية الرواية، بل تتعلق بها وبغيرها من أنواع السلوك البشري.

أهمية الموضوع وسبب اختياره

تتضح أهمية هذا الموضوع من خلال العوامل التي أدت إلى الاهتمام به. فهناك ثلاثة عوامل رئيسة وراء هذه الدراسة: أحدها يتعلق بعلم أصول الحديث أو مصطلح الحديث. والعامل الثاني يتعلق بدراسات المستشرقين حول السنة النبوية ونظرتهم إلى واقع عملية الرواية في صدر الإسلام. أما العامل الثالث فيتعلق بحال الأمة الإسلامية اليوم، وما تعانيه من تفرق وتخلف، على مستوى الأفراد والجماعات، لعل أحد أسبابه الرئيسة بعدها عن الهدي الإلهي في جانب نقل الأخبار ونشرها، وعدم التزامها بالضوابط والآداب المتعلقة بذلك.

أما **العامل الأول**: فيتمثل في كون هذه الدراسة محاولة لتلمس الأسس والأصول التي بني عليها علم مصطلح الحديث. فهذا العلم من العلوم التي اختص بها المسلمون دون غيرهم من الأمم، ولكنه لم يأت من فراغ، وإنما استمد مشروعيته واستلهم قواعده من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فقد بُني هذا العلم على ما في هذين المصدرين من مبادئ وقواعد وأحكام رئيسة تتعلق بعلم رواية الحديث ودرايته. وستقوم هذه الدراسة بإبراز هذه المبادئ والقواعد والأحكام، حتى يمكن التعرف عليها، والوقوف على أثر القرآن الكريم في نشأة علوم الحديث وتطورها.

والعامل الثاني: يتلخص فيما يعتقده المستشرقون ومن نحا نحوهم من أبناء جلدتنا أن عملية الرواية في القرن الهجري الأول لم يكن لها أي ضابط تسير في إطاره، بل كانت تمضي حرة دون أي قيد أو شرط، الأمر الذي أدى -في زعمهم- إلى الزيادة في الروايات والمبالغة فيها، بل إلى اختلاق القصص والأخبار عن النبي ﷺ، وذلك من أجل إثارة إعجاب المسلمين الجدد بالنبي محمد ﷺ، وحثهم على التمسك بالدين الذي جاء به.

فالمستشرق جيمس روبسون[1] مثلا يصور واقع عملية الرواية في الأيام الأولى من الإسلام بقوله: "إن ما حصل بالفعل هو أن مجموعة من المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي اعتنوا بدراسة الأحاديث، بل واختلاقها، ولكن هذا الاختلاق كان لأهداف حسنة غالبا"[2]. ويؤكد أن هذا الواقع ينطبق على جميع طوائف المسلمين، فقد أصبح اختلاق الأحاديث من الممارسات العامة، وذلك من أجل دعم وجهات نظر الطوائف المختلفة، يستوي في ذلك المسلمون الصالحون وغيرهم[3]. كما يزعم هذا المستشرق أن عملية تناقل الروايات من إنسان إلى آخر أدت إلى الزيادة والتوسع في تلك الروايات، وإضافة معلومات وحوادث غير واقعية إليها، لاسيما

---

[1] جيمس روبسون (١٨٩٠-١٩٨١م) مستشرق بريطاني من مدينة جلاسكو في بريطانيا، كتب عددا من المقالات في مجال علم الحديث في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، وفي عدد من الدوريات العلمية المتخصصة في الدراسات العربية والإسلامية. شغل منصب نائب كرسي الدراسات العربية في جامعة جلاسكو (١٩١٥-١٩١٦م). عمل بعد ذلك مدرسا للغة الإنجليزية ومنصرا في مدينة لاهور ومدينة عدن، عين بعد ذلك محاضرا للغة العربية في جامعة جلاسكو (١٩٢٨-١٩٤٨م). حصل على الدكتوراه من كلية الثالوث في جامعة جلاسجو، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية في الإلهيات من جامعة سينت أندروز. شغل منصب رئيس كرسي الدراسات العربية في جامعة مانشستر (١٩٤٩-١٩٥٨م)، وكان عضوا في الجمعية الاستشراقية في جامعة جلاسكو (١٩٢٢-١٩٧٤م)، وكذلك في الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلندا (١٩٣٣-١٩٧٩م)، كما كان عضوا في هيئة تحرير مجلة العالم الإسلامي، المتخصصة في الدراسات الإسلامية (١٩٤٧-١٩٨٠م). انظر:

"*Who's* is Who", An annual biographical dictionary, London, 1981; "Who was Who" vol. viii, (1981-1990), London, 1991; "The Writers Dictionary" (1974-76), London / New York, 1973.

[2] Robson, "Tradition: investigation and classification", (*The Muslim World*. Hartford. 41, 1951), p. 98.

[3] See Robson "Non-Resistance in Islam", (*Transactions of the Glasgow University Oriental Society. Glasgow*, 9, 1938/39), p. 3; cf. Robson "Tradition: investigation and classification", p. 99.

عندما تكون هناك رغبة في إثارة إعجاب المسلمين الجدد[١].

هذا التصور لواقع عملية الرواية في الأيام الأولى من الإسلام يعد نتيجة طبيعية لاعتقاد المستشرقين أن المجتمع المسلم في الأيام الأولى من الإسلام لم يعتمد الحديث مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي، وأن المسلمين آنذاك كانوا يتناقلون الأحاديث بهدف التسلية وملء أوقات الفراغ[٢].

وخلاصة الأمر في نظر روبسون ومن وافقه أن عملية رواية الأحاديث في صدر الإسلام كانت تسير دون ضوابط تضبطها أو قواعد تنظمها، وأن اختلاق الروايات والزيادة فيها كان أمرا شائعا آنذاك من أجل وضع قانون معين، أو دعم فكرة محددة. وقد أدى ذلك إلى نظرة ملؤها الشك والريبة تجاه الأحاديث النبوية الشريفة. يقول المستشرق جيمس روبسون: "إن البحث عن مواد قد تكون أصيلة بين الروايات الحديثية يواجه صعوبة بالغة، فمع أن المرء لا يجرؤ على التصريح بعدم وجود مثل هذه المواد فإن البحث عنها في هذه الكمية الضخمة من الروايات أشبه بالبحث عن إبرة معدنية في كومة من القش"[٣].

ولذلك ستقوم هذه الدراسة بإلقاء الضوء على تعاليم القرآن الكريم التي تتعلق بعملية الرواية تحملا وأداء، لتثبت أن عملية رواية الأحاديث منذ أيامها الأولى لم تكن -كما يصورها المستشرقون- تسير دون قيد أو ضابط، بل كانت محاطة بجملة من الأصول والمبادئ التي تحفظها من الزيادة أو النقصان، والتحريف أوالتبديل، والكذب أو البهتان.

والعامل الثالث يتمثل في حاجة الأمة الإسلامية اليوم إلى العودة إلى كتاب

---

[1] Robson, "Muslim Tradition: The question of authenticity", (*Memoirs and proceedings of the Manchester Literary & Philosophical Society* (*Manchester Memoirs*), 93, 1951/52), p. 86.

[2] See Robson "Tradition, the second foundation of Islam", (*The Muslim World*. Hartford. 41. 1951), pp. 23f.

للباحث دراسة باللغة الإنجليزية تعرض وتناقش آراء المستشرق جيمس روبسون حول أهمية السنة ومكانتها في الأيام الأولى من الإسلام، بعنوان: "*The Noble Hadith in the early days of Islam*"، سيتم نشرها قريبا إن شاء الله تعالى.

[3] Robson, "Muslim Tradition: The question of authenticity", p. 98.

ربها عز وجل وسنة نبيها محمد ﷺ في جميع ميادين الحياة ومجالاتها، ولعل من أهم تلك المجالات الهدي الرباني المتعلق بعملية نقل الروايات ونشرها. فلا بد من التعرف على ضوابط الرواية في القرآن الكريم، وتربية الأجيال المسلمة على تلك الضوابط، والعمل على صبغ حياتنا وسلوكنا الاجتماعي بها، والإفادة منها في تقييم واقعنا المعاصر في مجال قبول الأخبار والروايات وإذاعتها ونشرها. فكم كان البعد عن أسس الرواية وضوابطها وقواعدها العامة في هذا العصر سببا في نشر الأخبار غير الصحيحة وغير الموثوقة، وإصابة قوم بجهالة، وبث الرعب والخوف في قلوب الناس، ونشر الخلاف والفرقة بين أبناء المسلمين.

المطلب الأول: تعريف مصطلح "ضوابط الرواية"

يشتمل هذا المصطلح على كلمتين: "ضوابط" و"الرواية". فالضوابط جمع ضابط، وهي اسم فاعل للفعل ضَبَطَ الدال على لزوم الشيء وحفظه. فالضَّبْطُ في اللغة: "لزوم الشيء وحَبْسُه... وقال الليث: "الضَّبْطُ لزومُ شيء لا يفارقه في كل شيء، وضَبْطُ الشيء حِفْظُه بالحزم، والرجل ضابِطٌ أي: حازِم"... والضابِطُ: القويّ على عمَلِه"[١].

وجاء في مختار الصحاح: "ضَبَطَ الشيء حفظه بالحزم، وبابه ضرب. ورجل ضَابِطٌ أي حازم"[٢]. وفي المعجم الوسيط: "ضبطه ضبطا: حفظه بالحزم حفظا بليغا، وأحكمه وأتقنه. ويقال: ضبط البلاد وغيرها: قام بأمرها قياما ليس فيه نقص. وضبط الكتاب ونحوه: أصلح خللَه"[٣]. فلفظة "ضابط" تطلق على ما يقوم بالحفاظ على الشيء ورعايته والقيام بحقه خير قيام.

---

[١] أبـو الفضل. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري. ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر. حرف الطاء المهملة، فصل الضاد.

[٢] الرازي، محمد بن أبي بكر. ١٩٨٧م. *مختار الصحاح*. بيروت: مكتبة لبنان. مادة ضبط.

[٣] د. إبراهيم أنيس وآخرون. د.ت. *المعجم الوسيط*. دون مكان ونشر: مادة ضبط.

أما كلمة الرواية فهي مصدر للفعل روى بمعنى حدَّث وقصّ. يقال: "روى الحديثَ والشِّعْرَ يرْويه رِواية وتَرَوَّاه ... ويقال: روَّى فلان فلاناً شعراً، إذا رواه له حتى حَفظه للرِّواية عنه"[١]. وجاء في مختار الصحاح: "رَوَى الحديث والشعر يروي بالكسر رِوَايَةً، فهو رَاوٍ"[٢]. وفي المعجم الوسيط: "روى الحديثَ أو الشعرَ رواية: حمله ونقله، فهو راو، والجمع رواة ... ويقال: روى عليه الكذب: كذب عليه... والرِّواية: القصة الطويلة (محدثة)"[٣].

فلفظة "الرواية" تطلق على كل ما يحدَّث به الإنسان وينقله إلى غيره من حديث أو شعر أو قصة وغير ذلك. كما تطلق على عملية التحديث ونقل الحديث أو الخبر وتبليغه للآخرين، والمعنى الثاني هو المقصود في هذه الدراسة. وعلى هذا المعنى جاء تعريف الدكتور نور الدين عتر للرواية في اصطلاح المحدثين، حيث عرفها بأنها "حمل الحديث ونقله وإسناده إلى من عُزِي إليه، بصيغ من صيغ الأداء"[٤]. فهي تشمل أخذ الحديث وتَلَقّيه من الشيخ، وهو ما يُسميه علماء الحديث "التحمُّل"، كما تشمل تبليغ الأحاديث للآخرين ونقلها إليهم، وهو ما يُطلقون عليه لفظ "الأداء".

والمقصود بمصطلح ضوابط الرواية هو: الأصول والمبادئ التي تحكم عملية الرواية، وتحفظها من الزيادة والنقص، أو التحريف والتبديل.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن "ضوابط الرواية"، تختلف عن "شروط صحة الروايات"، فبينما تمثل الأولى وسائل وقائية تساعد على حفظ عملية الرواية من أي خلل قد يؤدي إلى الزيادة والنقص أو التحريف والتبديل فيما يتحمله الراوي ويبلغه للآخرين، فإن "شروط صحة الروايات" تتمثل في صفات محددة اشترط المحدثون

---

[١] ابن منظور. ج١٤ ص٣٤٨.

[٢] الرازي. ص١١١.

[٣] أنيس. مادة روى.

[٤] عتر، نور الدين. ١٩٨١م. *منهج النقد عند المحدثين*. دمشق: دار الفكر. ط٣. ص١٨٨.

توافرها في السند والمتن للحكم على الحديث بالصحة. والتحقق من توافر هذه الشروط هو وظيفة عملية نقد المرويات، والتمييز بين المقبول منها والمردود[١].

وإن الدراسة المتأنية لآيات القرآن الكريم تكشف للمرء عددا من الأصول والمبادئ المهمة التي تعين على ضبط عملية الرواية وحفظها من الخطأ. ونظرا لطبيعة القرآن الكريم وكونه كتاب هداية وإرشاد للسلوك الإنساني بمختلف مجالاته وأنواعه وليس كتابا متخصصا في قضية معينة أو مسألة محددة، فإن كثيرا من الأصول والمبادئ التي أعرض لها في هذه الدراسة لا تختص بمسألة رواية الحديث فقط، وإنما هي أصول دينية وضوابط أخلاقية عامة، ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بعملية رواية الأخبار والأحاديث النبوية، بحيث تعين على حفظ تلك العملية من أي خلل قد يصيبها. وقد جعلت هذه الضوابط في قسمين: ضوابط خاصة، وضوابط عامة.

المطلب الثاني: الضوابط الخاصة للرواية

والمقصود بالضوابط الخاصة مجموع الأصول والمبادئ التي تحكم عملية تحمل الروايات وأدائها، وتتعلق بها بشكل مباشر، وتتمثل فيما يلي:

١. الأمر بالصدق ومرافقة الصادقين

إن أول ضابط من ضوابط الرواية هو الأمر بالصدق والأمانة والتحري فيما يحدث به المرء، وينقله عن غيره. وقد حوى القرآن الكريم العديد من الآيات التي تأمر المسلمين بالصدق، وتحثهم على صحبة الصادقين ومرافقتهم.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٢]. ففي

---

[١] أعد الباحث دراسة خاصة حول هذا الموضوع بعنوان: "معالم النقد في القرآن الكريم". يتم نشرها قريبا إن شاء الله تعالى.

[٢] القرآن، التوبة ٩: ١١٩.

الآية أمر للمؤمنين بالتزام الصدق ومصاحبة الصادقين الذين يصدقون في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم ويوفون بعهودهم ومواثيقهم. وقد نزلت هذه الآية، والآية التي سبقتها من سورة التوبة، في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، يقول كعب بن مالك ﷺ: "فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي. مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا"[١].

ويقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ: "إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، هل ترون في الكذب رخصة؟"[٢]. فاستدل بهذه الآية على تحريم الكذب، سواء أكان الإنسان جادا في ذلك أو مازحا.

وفي آية أخرى يحث الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على تحري الصدق والالتزام به، وذلك ببيانه لما يؤول إليه حال الصادقين في الآخرة، يقول عز وجل: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣]. قال الإمام القرطبي: "قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: صدقهم في الدنيا، فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق. وصدقهم في الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم في العمل لله، ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله. وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم –وإن كان نافعا في كل الأيام– لوقوع الجزاء فيه"[٤].

---

[١] أخرجه البخاري. في كتاب التفسير. باب يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين: البخاري. حديث رقم: ٤٤٠١. ج٤ ص١٧١٩. والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك هم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي. وكلهم من الأنصار ﷺ. وقد خرّج البخاري ومسلم حديثهم.

[٢] القرطبي. ج٨ ص٢٨٩.

[٣] القرآن، المائدة ٥: ١١٩.

[٤] القرطبي. ج٦ ص٣٧٩. وانظر في الموضوع نفسه: الآية ١٥–١٧ من سورة آل عمران؛ والآية ٢٤ و٣٥ من سورة الأحزاب؛ والآية ١٩ من سورة الحديد.

وهكذا يعد الأمر بالصدق أصلا مهما من الأصول التي تضبط الرواية وتحافظ عليها، فعلى الراوي تحري الصدق من الأخبار والروايات قبل نشرها، فإن روى ما لا يصح من الروايات دون تمييز لها وبيان لحالها كان مخالفا لهذا الضابط، ومشاركا في الإثم المترتب على تلك الروايات غير الصحيحة.

٢. الأمر باجتناب الكذب

في مقابل الأمر بالصدق يأتي الأمر باجتناب الكذب والاحتراز من قول الزور. ومع أن الأمر بالصدق يقتضي الأمر باجتناب الكذب والبعد عنه، فقد خص القرآن الكريم آيات عديدة للتحذير من الكذب بجميع أنواعه، وبيان مآل الكاذبين وعقوبتهم، وذلك استكمالا للموضوع من جميع جوانبه، وتأكيدا لضرورة الاحتراز من هذا الفعل الشنيع.

يقول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[١]. أي: "واتقوا قول الكذب والفرية على الله بقولكم في الآلهة: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[٢]، وقولكم للملائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القول، فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله"[٣].

وقد حذر الله سبحانه وتعالى من افتراء الكذب عليه، فقال: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤]. أي: "لا تحرموا وتحللوا بمجرد قول من غير دليل. يقال: له وجه يصف الجمال، بمعنى: وجه جميل، وعين تصف السحر، بمعنى عين فتانة، ولسان يصف الكذب، بمعنى: لسان

---

[١] القرآن، الحج ٢٢: ٣٠.

[٢] القرآن، الزمر ٣٩: ٣.

[٣] الطبري أبو جعفر محمد بن جرير. ١٩٩٧م. *جامع البيان*. بيروت: دار الكتب العلمية. ط٢ ج٩ ص١٤٤.

[٤] القرآن، النحل ١٦: ١١٦-١١٧.

كذاب، وهنا جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة، وكذبهم يشرح تلك الحقيقة"[١]. ثم بين لهم أن من يفعل ذلك لا يفلح في الدنيا ولا في الآخرة؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم[٢].

ويقرر الله عز وجل أن الكذب عليه من أكبر الآثام وأعظمها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣]. "يعني فمن أشد ظلما وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله، ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله، جهلا منه، إذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه إلى الله، ويقول: إن الله أمرنا بهذا... إن الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله، وأضاف إليه ما لم يشرعه لعباده"[٤].

أما عن حال من كذب على الله عز وجل وعقابه في الآخرة، فيوضحه سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٥]. أي: لا أحد أشد ظلما وتعذيبا ممن اختلق على الله كذبا فكذب عليه، أولئك يعرضون على ربهم، ويقول الملائكة والأنبياء الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون: هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا على ربهم. فيقول الله عز وجل: ﴿ألا لعنة الله على

---

[١] الزحيلي: وهبة. ١٩٩١م. *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*. بيروت: دار الفكر المعاصر. ج١٤ ص٢٥٤. وانظر الطبري. ج٧ ص٦٥٨.

[٢] انظر الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. ١٩٦٩م. *تفسير القرآن العظيم*. بيروت: دار المعرفة. ج٢ ص٥٩٠.

[٣] القرآن، الأنعام ٦: ١٤٤.

[٤] الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي. د.ت. *تفسير الخازن "لباب التأويل في معاني التنزيل"*. بيروت: دار المعرفة. ج٢ ص٦١. ومن الآيات التي تحذر من الكذب على الله عز وجل كذلك: البقرة ١: ٧٩. آل عمران ٣: ٩٤. الأنعام ٦: ٢١، ٩٣. الأعراف ٧: ٣٧. يونس ١٠: ١٧. الكهف ١٨: ١٥. العنكبوت ٢٩: ٦٨. الزمر ٣٩: ٣٢. الصف ٦١: ٧.

[٥] القرآن، هود ١١: ١٨.

الظالمين﴾ أي: ألا غضب الله على المعتدين الذين كفروا بربهم[١].

وفي آية أخرى يقول عز وجل: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢]. يخاطب الله تعالى في هذه الآية نبيه محمدا ﷺ بقوله: ويوم القيامة ترى وجوه هؤلاء الذين كذبوا على الله من قومك فزعموا أن له ولدا، وأن له شريكا، وعبدوا آلهة من دونه مسودة. أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيده، والانتهاء إلى طاعته فيما أمره ونهاه عنه[٣].

ومما ينفر من الكذب أن الله عز وجل جعله من صفات الكافرين الذين لا يؤمنون بالله تعالى ورسله وآياته، ومن سماتهم التي يُعرفون بها ويُميَّزون بها عن غيرهم، يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[٤]. أي: "إنما يفتري الكذب على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس"[٥].

إن تحريم الكذب والتنفير منه والأمر بالاحتراز منه وتجنبه أصل وضابط مكمل للضابط الأول للرواية، وهو الأمر بالصدق، كما أن فيه تأكيدا على ضرورة اجتناب الكذب عموما، والكذب على الله وكتبه على وجه الخصوص.

٣. الأمر بعدم الاستماع إلى الكذب والاحتراز من مجالسة الكاذبين

لم يكتف القرآن الكريم بالنص على تحريم الكذب وقول الزور، بل أمر بعدم

---

[١] انظر الطبري. ج٧ ص٢١-٢٢ ومن الآيات التي تتحدث عن حال المكذبين وعقابهم: البقرة ١: ١٠. الأنعام ٦: ٩٣. التوبة ٩: ٧٧. يونس ١٠: ٦٩. النحل ١٦: ٥٦. طه ٢٠: ٦١.

[٢] القرآن، الزمر ٣٩: ٦٠.

[٣] انظر الطبري. ج١١ ص٢١.

[٤] القرآن، النحل ١٦: ١٠٥.

[٥] ابن كثير الدمشقي. ج٢ ص٥٨٧. والنظر: النساء: ٥٠. والمائدة: ١٠٣.

الاستماع إلى ذلك وقبوله، والاحتراز من مجالسة الفاسقين الذين يكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى ويستهزئون بها، وذلك حماية للمجتمع المسلم من الآثار السلبية لهذا الأمر الخطير. فإن في الاستماع إلى الكذب ومجالسة الكاذبين إقرارا لهم على كذبهم وبهتانهم، وتأييدا لما هم عليه من باطل، كما أنه قد يؤدي مع مرور الوقت إلى أن يألف المرء باطلهم ويسلك مسلكهم ويتشبه بهم، ويروي للناس افتراءاتهم.

وقد عاب الله عز وجل على أهل الكتاب استماعهم للكذب وقبوله من أحبارهم ورهبانهم، فقال سبحانه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: هؤلاء اليهود الذين وصفت لك يا محمد صفتهم، سماعون لقيل الباطل والكذب، ومن قِيلِ بعضهم لبعض: محمد كاذب، ليس بنبي، وقيل بعضهم: إن حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم، وغير ذلك من الأباطيل والإفك، ويقبلون الرُّشا[٢]، فيأكلونها على كذبهم على الله وفريتهم عليه[٣].

ويحذر القرآن الكريم من حضور المجالس التي يكذب أصحابها بآيات الله سبحانه وتعالى ويستهزئون بها، وذلك لما في مجالستهم من مخاطر الاقتداء بهم، والرضا بأحوالهم. يقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[٤]. يفسر الإمام الطبري هذه الآية

---

[١] القرآن، المائدة ٥: ٤١.

[٢] الرشا بكسر الراء أو بضمها: جمع رشوة بكسر الراء وبضمها. انظر الرازي. مادة "رشا".

[٣] انظر الطبري. ج٤ ص٥٧٩.

[٤] القرآن، النساء ٤: ١٤٠.

بقوله: "وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله، ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثله، يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم، وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله، فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه"[١].

وتدل الآية على النهي عن مجالسة الفاسقين وأهل البدع والأهواء، عند خوضهم في باطلهم، وأن من جالسهم حكمه حكمهم. "وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة، وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة، منهم الإمام أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك، فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع: يُنهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم"[٢].

٤. النهي عن القول بغير علم أو بالظن

القول بغير علم مطلقا، أو بالظن الذي هو محض الخيال والتوهم من الأمور التي نهى عنها القرآن الكريم وحذر منها، وهدد مرتكبها بالحساب عليها. ويدخل في ذلك الرواية عن الله عز وجل ورسوله ﷺ دون علم بصحة الرواية من عدمها، أو عند الشك في صحتها. يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٣].

أخرج الإمام الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: "لا تقل رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك

---

[١] الطبري. ج٤ ص٣٢٨. ومن الآيات التي تنهى عن مجالسة المكذبين والمستهزئين بالله عز وجل وآياته: الأنعام ٦: ٦٨. والخطاب في هذه الآية وإن كان للنبي ﷺ. فإن المؤمنين داخلون معه في ذلك الخطاب. انظر القرطبي. ج٧ ص١٢.

[٢] القرطبي. ج٧ ص١٤٢؛ والطبري ج٤ ص٣٢٨.

[٣] القرآن، الإسراء ١٧: ٣٦.

كله"[١]. وقد لخص الحافظ ابن كثير ما ذكر في تفسير هذه الآية بقوله: "ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال"[٢].

ومن الآيات التي حذرت من أن يصدر الإنسان في أقواله وأفعاله عن التوهم والظن، قوله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْم﴾[٣]. ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُون﴾[٤].

يقول الإمام القرطبي: "وللظن حالتان: حالة تُعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنايات. والحالة الثانيه: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفا"[٥].

وقد عاب القرآن الكريم على كثير من الأمم السابقة اتباعها للظن واعتمادها عليه. ففي معرض الحديث عن اليهود، يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّون﴾[٦]. والظن في هذه الآية بمعنى الكذب. فقد نقل الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية عن أحمد بن يحيى النحوي قوله: "إن العرب تجعل الظَّن علما وشكا وكذبا، وقال: إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظن يقين، وإذا اعتدلت براهين اليقين وبراهين الشك فالظن شك، وإذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب، قال

---

[١] الطبري، ج٨ ص١٨٠؛ وابن كثير الدمشقي، ج٣ ص٣٩.

[٢] ابن كثير الدمشقي، ج٣ ص٣٩.

[٣] القرآن، الحجرات ٤٩: ١٢.

[٤] يونس:٣٦. وانظر النجم ٥٣: ٢٨.

[٥] القرطبي، ج١٦ ص٣٣٣.

[٦] القرآن، البقرة ١: ٧٨.

الله عز وجل ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أراد إلا يكذبون"[١].

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[٢]. يقول الحافظ ابن كثير: "يعني ذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلّمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين"[٣].

وفي الحديث عن مشركي مكة، يقول سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[٤].

وهنا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يخاطب المشركين ويقول لهم: إن تقولون ما تقولون أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون، وتُحرّمون من الحروث والأنعام ما تحرمون، إلا ظنا وحسبانا أنه حق، وأنكم على حق وهو باطل، وأنتم على باطل. وما أنتم في ذلك كله إلا تتقوّلون الباطل على الله ظنا بغير يقين علم ولا برهان واضح[٥].

وهكذا يعد النهي عن القول بغير علم أو بالظن ضابطا رئيسا من ضوابط الرواية. فالراوي الملتزم بهذا الضابط سوف يتحقق من الروايات والأخبار ويدقق فيها قبل روايتها ونشرها، فلا يروي إلا ما تحقق منه وتيقن صحته أو غلب على

---

[١] القرطبي. ج٢ ص٧.

[٢] القرآن، النساء ٤: ١٥٧.

[٣] ابن كثير الدمشقي. ج٢ ص٥٧٤.

[٤] القرآن، الأنعام ٦: ١٤٨. وانظر: الأنعام ٦: ١١٦. يونس:٦٦. النجم ٥٣: ٢٣.

[٥] انظر الطبري. ج٥ ص٣٨٨.

ظنه ذلك، ويتجنب الروايات المبنية على الشكوك والأوهام.

٥. النهي عن التحريف والتبديل

التحريف والتبديل صورة من صور الكذب، فالكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه[١]. وقد يكون ذلك اختلاقا لأمر ما لا وجود له في الواقع، أو يكون تحريفا أو تبديلا لأمر موجود، وتصويره على غير حقيقته. وقد نص القرآن الكريم على تحريم التحريف والتبديل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢]. والإلحاد يأتي بمعنى الكفر والتكذيب والاستهزاء والتحريف والتبديل، وقد روى الإمام الطبري في تفسير الإلحاد في هذه الآية عددا من الأقوال، ختمها بتفسير ابن عباس ﷺ للإلحاد بأنه تبديل الكلام ووضعه على غير مواضعه، ثم علق على ذلك قائلا: وكل هذه الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك قريبات المعاني، وذلك أن اللحد والإلحاد: هو الميل، وقد يكون ميلا عن آيات الله، وعدولا عنها بالتكذيب بها، ويكون بالاستهزاء مكاء وتصدية، ويكون مفارقة لها وعنادا، ويكون تحريفا لها وتغييرا لمعانيها. ولا قول أولى بالصحة في ذلك مما قلنا، فالأولى أن يعم الخبر عنهم بأنهم ألحدوا في آيات الله، كما عم ذلك ربنا تبارك وتعالى. ثم يبين سبحانه أنه عالم بهؤلاء لا يخفون عليه، وأنه لهم بالمرصاد حين يَرِدون عليه، فيجازيهم على فعلهم هذا، وذلك تهديد من الله جل ثناؤه لهم[٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ فيه تهديد ووعيد لكل من تسول له نفسه فيكذب بآيات الله سبحانه وتعالى أو يستهزئ بها، أو يحرف أوامره أو

---

[١] انظر القرطبي. ج١١ ص٣٠١.

[٢] القرآن، فصلت ٤١: ٤٠.

[٣] انظر الطبري. ج١١ ص١١٥.

يستبدل بها غيرها[١].

ومما يظهر من دراسة الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، أن التحريف والتبديل في الأوامر والتشريعات من الأمور التي اشتهر بها اليهود أكثر من غيرهم، فقد تحدث القرآن الكريم في عدد من آياته عن تحريفهم لأوامر الله عز وجل وتبديلهم لتشريعاته وعدم تطبيقها كما أمر سبحانه. يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

أي: أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد ﷺ والمصدقين بما جاءكم به من عند الله أن يؤمن لكم يهود بني إسرائيل وأن يصدقوا بما جاءكم به نبيكم ﷺ من عند ربكم[٣]. يقول الإمام القرطبي: وهذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، أي إن كفروا فلهم سابقة في ذلك. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ. وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. وقد ذهب مجاهد والسدي إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَه﴾: علماء اليهود الذين يحرفون التوراة، فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما، اتباعا لأهوائهم[٤]. ومن عناد اليهود وتماديهم في الباطل أنهم يقومون بالتحريف والتبديل بعدما عرفوا كلام الله سبحانه وتعالى وعلموه، فهم يخالفونه على بصيرة، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من التحريف والتأويل[٥].

وفي آية أخرى يخاطب الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

---

[١] انظر ابن كثير الدمشقي. ج٤ ص١٠٢.

[٢] القرآن، البقرة ١: ٧٥.

[٣] انظر الطبري. ج١ ص٤٠٩.

[٤] انظر القرطبي. ج٢ ص٢-٣.

[٥] ابن كثير الدمشقي. ج١ ص١١٥.

مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

يفسر الإمام ابن جرير الطبري التحريف بقوله: "وكان تحريفهم ذلك تغييرَهم حكم الله تعالى ذكره، الذي أنزله في التوراة في المحصنات والمحصنين من الزناة، بالرجم إلى الجلد والتحميم"[٢]. وذلك بعد ما روى عن السدي قوله: "كان بنو إسرائيل أنزل الله عليهم: إذا زنى منكم أحد فارجموه. فلم يزالوا بذلك حتى زنى رجل من خيارهم؛ فلما اجتمعت بنو إسرائيل يرجمونه، قام الخيار والأشراف فمنعوه. ثم زنى رجل من الضعفاء، فاجتمعوا ليرجموه، فاجتمعت الضعفاء فقالوا: لا ترجموه حتى تأتوا بصاحبكم فترجموهما جميعا! فقالت بنو إسرائيل: إن هذا الأمر قد اشتد علينا، فتعالوا فلنصلحه! فتركوا الرجم، وجعلوا مكانه أربعين جلدة بحبل مقيَّر -مطلي بالقار، وهو الزفت- ويحممونه -يصبغون وجهه بالحُمم، وهو الفحم- ويحملونه على حمار ووجهه إلى ذنبه، ويسودون وجهه، ويطوفون به"[٣].

وروى الإمام مسلم في سبب نزول هذه الآية عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيَ مُحَمَّماً -مصبوغا وجهه بالحُمَم، أي: بالفحم- مَجْلُوداً. فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُم؟» قَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلاً مِنْ عُلَمَائِهِمْ. فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قَالَ: لاَ، وَلَوْلاَ أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ. نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا

---

[١] القرآن، المائدة ٥: ٤١.

[٢] الطبري، ج٤ ص٥٧٦.

[٣] المرجع نفسه، ج٤ ص٥٧٥-٥٧٦. ومن الآيات الدالة على تحريف اليهود لكتاب ربهم وشريعته: النساء ٤: ٤٦. والمائدة ٥: ١٣.

الضَّعِيفَ، أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ. قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ. فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ -أي: تسويد الوجه بالحُمَم- وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ». فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾. إِلَى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾[١].

ويبين القرآن الكريم للمسلمين عقوبة اليهود الذين حرفوا كلام الله عز وجل، محذرا من تقليدهم واتباع طريقتهم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[٢].

أخرج البخاري ومسلم في تفسير هذه الآية حديث أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ. فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ»[٣].

ويفسر الإمام الطبري هذه الآية بقوله: "فتأويل الآية: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مباحا لكم كل ما فيها من الطيبات، موسعا عليكم بغير حساب، وادخلوا الباب سجدا، وقولوا: سجودنا هذا لله حطّة من ربنا لذنوبنا يحط به آثامَنا، نتغمد لكم ذنوب المذنب منكم فنسترها عليه، ونحط أوزاره عنه، وسنزيد المحسنين منكم

---

[١] أخرجه مسلم. كتاب الحدود. باب حد الزنى. انظر الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري. د.ت. *صحيح مسلم*. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. حديث رقم: ١٧٠٠. ج٣ ص١٣٢٧.

[٢] القرآن، البقرة ١: ٥٨-٥٩.

[٣] الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ. باب "وَقُولُوا حِطَّةٌ". انظر البخاري. حديث رقم: ٤٣٦٥. ج٤ ص١٧٠١ وأخرجه مسلم في كتاب التفسير. انظر النيسابوري. حديث رقم: ٣٠١٥. ج٤ ص٢٣١٢. وقد أشار القرآن إلى الواقعة نفسها. في سورة الأعراف. آية: ١٦١-١٦٢. (أستاههم) جمع أست. وهي الدبر. انظر الإمام ابن الأثير المبارك بن محمد الجزري. ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. *النهاية في غريب الحديث*. بيروت: دار الفكر. ط٢. ج٢ ص٢٤٩.

إلى إحساننا السالف عنده إحسانا"[١].

قال الحافظ ابن كثير: "وحاصل ما ذكره المفسِّرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأُمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم، من قبل أستاهم رافعي رؤوسهم، وأُمروا أن يقولوا حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزؤوا، فقالوا: حنطة في شعيرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته"[٢].

أما عن العقاب الذي حل باليهود بسبب تحريفهم لكلام الله عز وجل وعدم خضوعهم لأوامره، فقد أشار إليه الله عز وجل بقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[٣]. وقد روى الإمام الطبري عن ابن زيد[٤] تفسيره الرجز بالطاعون، ثم قال: "وقد دللنا على أن تأويل الرجز: العذاب، وعذاب الله جل ثناؤه أصناف مختلفة. وقد أخبر الله جل ثناؤه أنه أنزل على الذين وصفنا أمرهم الرجز من السماء، وجائز أن يكون ذلك طاعونا، وجائز أن يكون غيره، ولا دلالة في ظاهر القرآن ولا في أثر عن الرسول ثابت أي أصناف ذلك كان. فالصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل: فأنزلنا عليهم رجزا من السماء بفسقهم. غير أنه يغلب على النفس صحة ما قاله ابن زيد للخبر

---

[١] الطبري. ج١ ص٣٤٣.

[٢] ابن كثير الدمشقي. ج١ ص٩٩.

[٣] القرآن، البقرة ١: ٥٩.

[٤] ابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم صاحب التفسير. قال أبو حاتم: "كان في نفسه صالحا. وفي الحديث واهيا". وقال ابن الجوزي: "أجمعوا على ضعفه". وقال ابن خزيمة: "ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه. هو رجل صناعته العبادة والتقشف. ليس من أحلاس الحديث". مات سنة ١٨٢هـ. انظر الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. *تهذيب التهذيب*. (بيروت: دار الفكر. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م). ج٦ ص١٧٧-١٧٩. أحلاس: جَمْع حِلْس. وهو الكِسَاء الذي يَلِي ظَهْر البعير تحت القَتَب. وفيه معنى اللزوم والدوام. انظر ابن الأثير الجزري. ج١ ص٤٢٣. وقوله "ليس من أحلاس الحديث" أي ليس من الملازمين لعلم الحديث والمعتنين به.

الذي ذكرت عن رسول الله ﷺ في إخباره عن الطاعون أنه رجز، وأنه عذب به قوم قبلنا. وإن كنت لا أقول إن ذلك كذلك يقينا، لأن الخبر عن رسول الله ﷺ لا بيان فيه أي أمة عذبت بذلك"[١].

في مقابل ذلك تبين لنا آية أخرى ما أعد الله لأهل الكتاب، حال التزامهم بأوامر ربهم، واتباعهم لما جاء في الكتب المقدسة التي أنزلها عليهم، يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُون﴾[٢].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة. وقوله تعالى: ﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض"[٣].

وهكذا يأمر القرآن الكريم باجتناب التحريف والتبديل عموما، ويشدد على فعل ذلك غاية التشديد عندما يتعلق الأمر بآيات الله عز وجل، وبكل ماله صلة به سبحانه وتعالى من كتب مقدسة أوحى بها إلى عباده، ورسل كرام أرسلهم بالهدى ودين الحق، ويشمل ذلك القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وقد جاء الأمر باجتناب التحريف والتبديل من خلال النهي عن هذا الفعل مباشرة، وبيان عقاب

---

[١] الطبري. ج١ ص٣٤٦. والخبر الذي أشار إليه الطبري هو حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ عن الطاعون، وفيه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الْوَجَعَ، فَقَالَ: «رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ ثُمَّ بَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ، فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الأُخْرَى. فَمَنْ سَمِعَ بِهِ بِأَرْضٍ فَلا يُقْدِمَنَّ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ بِأَرْضٍ وَقَعَ بِهَا فَلا يَخْرُجْ فِرَارًا مِنْهُ». والحديث أخرجه البخاري في كتاب الْحِيَلِ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الاحْتِيَالِ فِي الْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونِ. انظر البخاري. حديث رقم:٦٥٧٣. ج٦ ص٢٥٥٧. وأخرجه الإمام مسلم بألفاظ مقاربة. في كتاب السلام. باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. انظر النيسابوري. حديث رقم: ٢٢١٨. ج٤ ص١٧٣٧.

[٢] القرآن، المائدة ٥: ٦٦.

[٣] ابن كثير الدمشقي. ج٢ ص٧٦.

من اقترفه وتلبس به، وثواب من اجتنبه وابتعد عنه.

٦. الأمر بالتثبت في الرواية

يعد الأمر بالتثبت في الرواية ونقل الأخبار أحد التوجيهات الرئيسة التي صرح بها القرآن الكريم ونبه إليها في أكثر من مناسبة. ففي سورة الحجرات يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١]. فهذه الآية تدل على "وجوب التثبت من الأخبار المنقولة والروايات المروية، أخذا بالحيطة والحذر ومنعا من إيذاء الآخرين"[٢].

وقد استدل الإمام مسلم على ضرورة التثبت في الروايات قبل روايتها ونشرها، مستدلا بهذه الآية وبقوله سبحانه: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُم﴾[٤]، فقال: "اعلم، وفقك الله تعالى، أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين، أن لا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه، والستارة في ناقليه. وأن يتقي منها ما كان منها من أهل التهم والمعاندين من أهل البدع"[٥].

ومن الآيات الدالة على أهمية التثبت قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٦].

---

[١] القرآن، الحجرات ٤٩: ٦.

[٢] الزحيلي. وهبة. ١٩٩١م. *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*. بيروت: دار الفكر المعاصر. ج٢٦ ص٢٢٩.

[٣] القرآن، البقرة ١: ٢٨٢.

[٤] القرآن، الطلاق ٦٥: ٢.

[٥] مقدمة صحيح مسلم. انظر النيسابوري. ج١ ص٨.

[٦] القرآن، النساء ٤: ٨٣.

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: "والمعنى أنهم إذا سمعوا شيئا من الأمور فيه أمن، نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم، أو الخوف، وهو ضد هذا، أذاعوا به، أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به، قبل أن يقفوا على حقيقته"[١]. وروى السيوطي عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: إذا جاءهم أمر أنهم قد أمنوا من عدوهم، أو أنهم خائفون منه، أذاعوا بالحديث حتى يبلغ عدوَّهم أمرُهم... ولو سكتوا وردوا الحديث إلى النبي ﷺ، أو إلى أميرهم حتى يتكلم به، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ينقرون عن الأخبار[٢].

ففي هذه الآية أمر بالتثبت في الأخبار وعدم قبولها ونشرها إلا بعد ردها إلى أولي الأمر وإلى أهل العلم والاختصاص والخبرة. كما أن فيها الإنكار على من يبادر إلى نشر الأخبار قبل التحقق من صحتها ودقتها، وقد لا يكون لها صحة[٣].

والغفلة عن التثبت في قبول الروايات لها آثارها الخطيرة على الفرد والمجتمع، فكم كان قبول الأخبار ونشرها دون تمحيص ونقد وتدقيق سببا في تفريق القلوب وتقطيع أواصر الألفة والمحبة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، بل ربما كان سببا في نشر الرعب والذعر في المجتمع بشكل عام.

المطلب الثالث: الضوابط العامة للرواية

ويقصد بالضوابط العامة للرواية مجموع الأصول والمبادئ التي لا تختص بموضوع الرواية، بل تتعلق به وبغيره، ولكن الإيمان بتلك الأصول والمبادئ ومراعاتها يؤدي إلى ضبط عملية الرواية وسلامتها. وتتمثل هذه الضوابط فيما يلي:

---

[١] القرطبي. ج٥ ص٢٩١.

[٢] انظر السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ١٩٩٠م. *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. بيروت: دار الكتب العلمية. ج٢ ص٦٠١.

[٣] انظر ابن كثير القرشي الدمشقي. ج١ ص٥٣٠.

١. تنمية الشعور بمراقبة الله عز وجل

لم يكتف القرآن الكريم بالأمر بالصدق ومرافقة الصادقين، والنهي عن الكذب والاستماع إلى الكاذبين، بل أحاط تلك الأوامر ببعض العقائد والتشريعات التي تحث على تطبيقها والاستجابة لها، ومن ذلك التأكيد على أن الله سبحانه وتعالى مطلع على جميع خلقه، يعلم سرهم وجهرهم، ويسمع حديثهم ونجواهم، ويحيط بجميع ما يصدر منهم من أقوال وأفعال وحركات وسكنات. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[١]. أي: "وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض فلا يخفى عليه شيء"[٢]. والمراد بالسر ما يخفيه الإنسان في ضميره، فهو من أعمال القلوب، وبالجهر ما يظهره الإنسان، فهو من أعمال الجوارح. والمعنى أن الله لا يخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض. أما قوله عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يعني من خير أو شر. "فإن قيل: إن الكسب إما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر، أو من أعمال الجوارح، وهو المسمى بالجهر، فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين، وهذا يقتضي عطف الشيء على نفسه، وذلك غير جائز. فالجواب عن ذلك -كما قرره الفخر الرازي-: أنه يجب حمل قوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب. والحاصل فيه أنه محمول على المكتَسَب، فهو كما يقال: هذا المال كسْبُ فلان، أي مكتَسَبه، ولا يجوز حمله على نفس الكسب، وإلا لزم عطف الشيء على نفسه"[٣].

وفيما يتعلق بما يصدر عن الإنسان من أقوال، سواء أعلن بها للناس أو أسرها في نفسه، يقول الله عز وجل: ﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

---

[١] القرآن، الأنعام ٦: ٣.

[٢] القرطبي. ج٦ ص٣٩٠.

[٣] الخازن. ج٢ ص٤.

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[١]. وإسرار القول: ما يحدث به المرء نفسه، والجهر ما يحدث به غيره. والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسره الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. فسواء في علم الله عز وجل من أسر قوله وأخفاه عن الناس، ومن جهر به فأخبر به غيره، وسواء في علمه سبحانه من يستخفي بمعصيته في ظلمة الليل ومن يظهرها ويعلنها في ضوء النهار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك[٢]. ويروى عن قتادة في تفسير هذه الآية قوله: "كل ذلك عنده سواء، السر عنده علانية، والظلمة عنده ضوء"[٣].

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٤]. عن ابن عباس ﷺ قال: "نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام؛ فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد؛ فنزلت: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾"[٥].

ويؤكد سبحانه إحاطة علمه بما يكنه الخلق في صدورهم، فيقول عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٦]. يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: "وإن ربك ليعلم ضمائر صدور خلقه، ومكنون أنفسهم، وخفي أسرارهم، وعلانية أمورهم الظاهرة، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو محصيها عليهم حتى يجازي جميعهم بالإحسان إحسانا وبالإساءة جزاءها"[٧].

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ

---

[١] القرآن، الرعد ١٣: ١٠.

[٢] انظر الطبري. ج٧ ص٣٤٨؛ والقرطبي. ج٩ ص٢٨٩-٢٩٠.

[٣] السيوطي. الدر المنثور. ج٤ ص٨٨. وانظر الطبري. ج١٣ ص١١٤.

[٤] القرآن، الملك ٦٧: ١٣.

[٥] القرطبي. ج١٨ ص٢١٤.

[٦] القرآن، النمل ٢٧: ٧٤. وانظر القصص:٦٩.

[٧] الطبري. ج١٠ ص١١.

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[١]. أي: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدث به نفسه، فلا تخفى علينا سرائره وضمائر قلبه. وفي هذا بيان لكمال علمه سبحانه وتعالى بأحوال خلقه، وزجر لخلقه عن المعاصي التي يستخفون بها[٢]. يقول الخازن في تفسيره لهذه الآية: "ومعنى الآية أن أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضا، ولا يُحجب عن علم الله شيء"[٣].

ويقرر القرآن الكريم إحاطة علمه سبحانه بكل ما في هذا الكون صغيره وكبيره، فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾[٤]. وهذا إخبار منه سبحانه "عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله في القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون"[٥]. وفي ذلك إشارة إلى كمال علمه سبحانه المتعلق بجميع المعلومات[٦].

إن استشعار إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بجميع ما في هذا الكون، واطلاعه سبحانه على ما يصدر عن المرء من أقوال وأفعال، بل بما يفكر به وبما تحدثه به نفسه، يمثل ضابطا آخر من ضوابط الرواية، فالراوي الذي يعلم أن الله سبحانه وتعالى الذي أمره بالصدق ونهاه عن الكذب وقول الزور مطلع على أفعاله وأقواله، عليم بسره وجهره، سيفكر مليا في كل كلمة ينطق بها، ويحتاط كثيرا في كل خبر ينقله ويرويه.

٢. تسجيل الملائكة لأعمال الإنسان

لقد جعل الله تعالى لكل إنسان سجلا خاصا تُدون فيه أعماله، خيرها وشرها،

---

[١] القرآن، ق ٥٠: ١٦.

[٢] انظر الطبري. ج١١ ص٤١٥؛ والقرطبي. ج١٧ ص٨.

[٣] الخازن. ج٤ ص١٧٦.

[٤] آل عمران:٥.

[٥] القرطبي. ج٤ ص٧.

[٦] الخازن. ج١ ص٢١٥.

صغيرها وكبيرها، سرها وجهرها، وتُسجل عليه فيه حركاته وسكناته، مع علمه عز وجل بتلك الأعمال، وذلك من أجل إقامة الحجة على خلقه. وقد وكّل سبحانه بأداء هذه المهمة ملكين كريمين: أحدهما عن يمين الإنسان يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾[١].

نقل الإمام القرطبي في تفسير "المتلقيان" عن مجاهد، قال: "وكل الله بالإنسان -مع علمه بأحواله- ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاما للحجة: أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد﴾"[٢]. وقال الأحنف بن قيس: "صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها"[٣].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾، يقول عبد الله بن عباس ﷺ: "يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَاب﴾[٤]".[٥]

ويقول الحسن البصري: "يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووُكّل بك ملكان كريمان: أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك. فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر،

---

[١] القرآن، ق ٥٠: ١٧-١٨.

[٢] القرطبي. ج١٧ ص٤٩ وانظر الطبري. ج١١ ص٤١٦؛ والسيوطي. *الدر المنثور*. ج٦ ص١١٨.

[٣] ابن كثير الدمشقي. ج٤ ص٢٢٤. وروى القرطبي نحوه عن سفيان. انظر القرطبي. ج١٧ ص١٠-١١.

[٤] القرآن، الرعد ١٣: ٣٩.

[٥] ابن كثير الدمشقي. ج٤ ص٢٢٤.

حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[١]".[٢]

وأخرج البيهقي عن عطاء بن أبي رباح (١١٤هـ) قال: "إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأه، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين ﴿كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾، وأن ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾؟ أما يستحي أحدكم لو نشر صحيفته التي ملأ صدر نهاره، وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟". وفي رواية أخرى: "وليس فيها شيء من أمر آخرته"[٣].

يقول الإمام النووي، مؤكدا على أهمية حفظ اللسان عن الحرام والمكروه، بل حتى عن المباح: "اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء"[٤].

إن المرء الذي يدرك أن أفعاله وأقواله محفوظة ومسجلة عليه، كبيرها وصغيرها، ليحسب لكل كلمة يتفوه بها حسابا، ويحتاط في كل خبر ينقله عن غيره، فلا يخبر إلا بما هو صحيح وصادق، ويبتعد عن اختلاق الأخبار ونشرها. وبذلك يكون الإيمان بهذه الحقيقة أحد الضوابط المهمة التي تضبط عملية الرواية وتحافظ عليها.

---

[١] القرآن، الإسراء ١٧: ١٣-١٤.

[٢] ابن كثير الدمشقي. ج٤ ص٢٢٤.

[٣] السيوطي. *الدر المنثور*. ج٦ ص١١٢٠؛ وانظر: ج٢ ص٣٩١.

[٤] النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي. ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. *رياض الصالحين*. دمشق: دار المأمون للتراث. ط٣. كتاب الأمور المنهي عنها. باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان. ص ٥٧٣.

٣. تقرير مبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمال

إن مبدأ مسؤولية الفرد عما يصدر عنه من أفعال وأقوال من المبادئ الرئيسة في الإسلام، فقد قرر القرآن الكريم في أكثر من موضع مسؤولية الإنسان عما يقدمه من خير أو يقترفه من إثم وشر، فـ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[١]، لا يُحسب له إلا ما قدم هو لنفسه، كما لا يأخذ أحد شيئا مما عمله وكسبه. ولا يَحمل عنه أحد شيئا من آثامه وأوزاره، كما لا تُحمَل عليه ذنوبُ غيره من الناس وأوزارهم، فليس للإنسان إلا عمله وسعيه، له ما كسب وعليه ما اكتسب.

قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٢]. قال السدي: يريد من الحسنات والسيئات. وقال ابن عطية: وجماعةُ المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك[٣].

وفي آية أخرى يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤].

وروى الترمذي عن قيس بن أبي حازم عن أبي بَكْرٍ الصِّدّيق أَنَّهُ قال: "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإِنِي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِماً فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»"[٥]. وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: "معنى الآية: لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف

---

[١] القرآن، الطور ٥٢: ٢١. وانظر المدثر ٧٤: ٣٨. والنجم ٥٣: ٣٩.

[٢] القرآن، البقرة ١: ٢٨٦. وانظر النجم ٥٣: ٣٩.

[٣] القرطبي. ج٣ ص٤٢٨.

[٤] القرآن، المائدة ٥: ١٠٥. وانظر الإسراء ١٧: ١٥.

[٥] الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رَسُولِ الله ﷺ. باب وَمِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ. وقال: هذا حديث حسن صحيح. الترمذي، محمد بن عيسى. د.ت. سنن الترمذي. تحقيق أحمد شاكر وآخرين. بيروت: دار إحياء التراث العربي. حديث رقم: ٣٠٥٧. ج٥ ص٢٥٦.

والنهي عن المنكر"[١].

وعن أبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قال: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الآيَةِ؟ قال: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قلت: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: "أَمَا واللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيراً، سَأَلْتُ عَنْهَا رسولَ الله ﷺ فقال: «بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ». قال عَبْدُ اللهِ بنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غيرُ عُتْبَةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قال: «لاَ، بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنْكُمْ»[٢].

وفي سورة أخرى نقرأ قول الله سبحانه وتعالى، مؤكدا المسؤولية الفردية لكل شخص على أعماله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٣].

وقد روي في سبب نزول هذه الآية "أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وآخرتك؛ فنزلت الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوبيخ"[٤].

وتبين هذه الآية أن كل نفس محاسبة بما اكتسبته من آثام وأوزار، فـ"لا تحمل حاملة ثقل أخرى، ولا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها

---

[١] القرطبي. ج٦ ص٣٤٤.

[٢] الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رَسُولِ اللهِ ﷺ. باب وَمِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ. وقال: هذا حديث حسن غريب. انظر الترمذي. حديث رقم: ٣٠٥٨. ج٥ ص٢٥٧.

[٣] القرآن، الأنعام ٦: ١٦٤. وانظر فاطر:١٨. والزمر ٣٩: ٧.

[٤] القرطبي. ج٧ ص١٥٥-١٥٦.

ومعاقبة بإثمها"[١].

ويؤكد القرآن الكريم أن مبدأ المسؤولية الشخصية الذي نبه إليه وأكد عليه من المبادئ الرئيسة التي قررتها الأديان السابقة، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾[٢].

يقول الإمام القرطبي: "وخص صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه... قال ابن عباس ﷺ: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، ويأخذون الولي بالولي في القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى: ﴿أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾"[٣].

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يؤاخذهم بما تحدث به نفوسهم ولم تعمله جوارحهم، فقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال: "ما بعث الله من نبي ولا أرسل من رسول أنزل عليه الكتاب إلا أنزل عليه هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، فكانت الأمم تأبى على أنبيائها ورسلها، ويقولون: نؤاخذ بما نحدث به أنفسنا ولم تعمله جوارحنا؟! فيكفرون ويضلون، فلما نزلت على النبي ﷺ اشتد على المسلمين ما اشتد على الأمم قبلهم، فقالوا: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نحدث به أنفسنا ولم تعمله جوارحنا؟ قال: «نعم،

---

[١] المرجع نفسه. ج٧ ص١٥٧.

[٢] القرآن، النجم ٥٣: ٣٦-٤١.

[٣] القرطبي. ج١٧ ص١١٣.

[٤] القرآن، البقرة ١: ٢٨٤.

فاسمعوا وأطيعوا واطلبوا إلى ربكم»، فذلك قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. فوضع الله عنهم حديث النفس إلا ما عملت الجوارح، لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر. ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2]، قال: فوضع عنهم الخطأ والنسيان. ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الآية. قال: فلم يكلفوا ما لم يطيقوا، و لم يحمل عليهم الإصر الذي جعل على الأمم قبلهم، وعفا عنهم وغفر لهم ونصرهم"[3].

وقد نقل الإمام النووي عن القاضي عياض قوله: "وقد اختلف الناس في هذه الآية، فأكثر المفسرين من الصحابة ومن بعدهم على ما تقدم فيها من النسخ، وأنكره بعض المتأخرين قال: لأنه خبر ولا يدخل النسخ الأخبار، وليس كما قال هذا المتأخر، فإنه وإن كان خبرا فهو خبر عن تكليف ومؤاخذة بما تكن النفوس والتعبد بما أمرهم النبي ﷺ في الحديث بذلك وأن يقولوا سمعنا وأطعنا، وهذه أقوال وأعمال اللسان والقلب، ثم نسخ ذلك عنهم برفع الحرج والمؤاخذة"[4].

ولا تعارض بين مبدأ المسؤولية الشخصية وما ورد من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[5]، وذلك لأن من لم ينه عن المنكر ويأخذ على يد العاصي، كان عاصيا مثله، فاستوجب بذلك غضب الله سبحانه وتعالى وعقابه. وقد نقل القرطبي عن القاضي أبي بكر ابن العربي توضيح هذا الإشكال والإجابة عنه بقوله: "فإن قيل: فقد قال الله تعالى

---

[1] القرآن، البقرة ١: ٢٨٥.

[2] القرآن، البقرة ١: ٢٨٦.

[3] السيوطي. *الدر المنثور*. ج١ ص٦٦٢. والحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان. باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر. وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يُكلف إلا ما يطاق. دون ذكر الأمم السابقة. انظر النيسابوري. حديث رقم: ١٢٥. ج١ ص١١٥.

[4] النووي. *صحيح مسلم بشرح النووي*. ج٢ ص١٥٠.

[5] القرآن، الأنفال ٨: ٢٥.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٣]. وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره؛ فإذا سُكت عليه فكلهم عاص، هذا بفعله وهذا برضاه. وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة"[٤].

يقول الإمام النووي في شرحه لحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ...»: "وأما قول الله عز وجل: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٥]، فليس مخالفا لما ذكرناه (وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٦]. وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله و لم يمتثل المخاطَب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القَبول، والله أعلم"[٧]. ويؤيد ذلك ما روي عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍ قَدِ اقْتَرَبَ. فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ:

---

[١] القرآن، الأنعام ٦: ١٦٤.

[٢] القرآن، المدثر ٧٤: ٣٨.

[٣] القرآن، البقرة ١: ٢٨٦.

[٤] القرطبي. ج٧ ص٣٩٣.

[٥] القرآن، المائدة ٥: ١٠٥.

[٦] انظر الإسراء ١٧: ١٥.

[٧] النووي. ج٢ ص٢٢-٢٣. وحديث: «من رأى منكم منكرا...» أخرجه مسلم في كتاب. باب بيان كون النهي عن المنكـــر من الإيمان. وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان. انظر النيسابوري. حديث رقم:٤٩. ج١ ص٦٩.

«نَعَمْ. إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[١].

إن الراوي الذي يستشعر مسؤوليته تجاه ما يصدر منه من أقوال وأفعال، سيكون حريصا على أن يكون على مستوى هذه المسؤولية، وأن يبتعد عن كل ما يخل بها. وهكذا يمثل مبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمال ضابطا مهما من ضوابط الرواية، وعاملا رئيسا من عوامل الحفاظ على عملية الرواية سليمة من التحريف والتبديل.

٤. تقرير عقيدة الحساب والجزاء

إضافة إلى مبدأ المسؤولية الشخصية، يقرر القرآن الكريم عقيدة الحساب والجزاء، التي تقتضي أن كل فرد سيحاسب على أعماله التي اكتسبها، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، وهي مبدأ مكمل لمبدأ المسؤولية الفردية. يقول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٢].

ويُروى عن سعيد بن جبير في سبب نزول هذه الآية قوله: لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[٣]، "كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك، فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء، إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر. فرغّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم

---

[١] الحديث أخرجه البخاري في كتاب الفتن. باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ»؛ وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب اقتراب الفتن. واللفظ لمسلم. انظر البخاري. حديث رقم: ٦٦٥٠. ج٦ ص٢٥٨٩؛ والنيسابوري. حديث رقم: ٢٨٨٠. ج٤ ص٢٢٠٧.

[٢] القرآن، الزلزلة ٩٩: ٦-٨.

[٣] القرآن، الإنسان ٧٦: ٨.

اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾"[١]. إن هذه "الآية تقرر أن من عمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه هنالك، ومن عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك"[٢].

ويقول الإمام القرطبي: "هذا مثل ضربه الله تعالى: أنه لا يُغفل من عمل ابن آدم صغيرةً ولا كبيرة. وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾"[٣][٤]. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: "لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف"، وذكر هذه الآية[٥].

وكان النبي ﷺ يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفاذة، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ أن رَسُول اللَّه ﷺ سئل عَنْ الْحُمُرِ فَقَال: «مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إلا هَذِهِ الآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾»[٦]. قال الحافظ ابن حجر: "سماها جامعة لشمولها لجميع الأنواع من طاعة ومعصية، وسماها فاذة لانفرادها في معناها"[٧]. وفي الآية حث على العمل بطاعة الله عز وجل، وزجر عن مخالفة أوامره وارتكاب معاصيه.

ويروى عن عبد الله بن عمر ﷺ، أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج ذات يوم إلى الناس فقال: أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن، وأعدلها، وأخوفها، وأرجاها؟ فسكت القوم. فقال ابن مسعود ﷺ: على الخبير سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم

---

[١] ابن كثير الدمشقي. ج٤ ص٥٤١.

[٢] الطبري. ج١٢ ص٦٦١.

[٣] القرآن، النساء ٤: ٤٠.

[٤] القرطبي. ج٢٠ ص١٥٠-١٥١.

[٥] المرجع نفسه. ج٢٠ ص١٥٢.

[٦] الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ. باب الْخَيْلُ لِثَلاثَةٍ؛ والإمام مسلم في كتاب الزكاة. باب إثم مانع الزكاة. انظر البخاري. حديث رقم:٢٧٠٥. ج٣ ص١١٠٥٠ والنيسابوري. حديث رقم:٩٨٧. ج٢ ص٦٨٢.

[٧] العسقلاني. *فتح الباري*. ج٦ ص٥٠.

آية في القرآن: ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[١]، وأعدل آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[٢] إلى آخرها، وأخوف آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[٣]، وأرجى آية في القرآن: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رحْمَةِ اللَّه﴾[٤]»[٥].

ويقرر القرآن الكريم أن المرء محاسب على كل ما يتلفظ به لسانه، أو تنظر إليه عينه، أو تستمع إليه أذنه، أو ما تقوم به أعضاؤه وجوارحه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٦].

يقول الإمام القرطبي: "أي: يُسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع. وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده... والمعنى الأول أبلغ في الحجة، فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي"[٧].

وهكذا تمثل عقيدة الحساب والجزاء ضابطا رئيسا من الضوابط المتعلقة برواية الأحاديث ونشرها، لكونها تجعل الراوي يحتاط فيما يتلفظ به ويرويه، وتحجزه عن الكذب والاختلاق في الرواية، لاعتقاده بأن الله عز وجل سيحاسبه عن كل قول صدر منه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

---

[١] القرآن، البقرة ١: ٢٥٥.

[٢] القرآن، النحل ١٦: ٩٠.

[٣] القرآن، الزلزلة ٩٩: ٧-٨.

[٤] القرآن، الزمر ٣٩: ٥٣.

[٥] انظر السيوطي. *الدر المنثور*. ج١ ص٥٧٣-٥٧٤. وقد حكم السيوطي على هذا الحديث بالضعف. انظر السيوطي. جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر. ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. *الجامع الصغير من حديث البشير النذير*. مكة المكرمة: مكتبة مصطفى نزار الباز. ط٢. ج١ ص٢٥٩.

[٦] القرآن، الإسراء ١٧: ٣٦.

[٧] القرطبي. ج١٠ ص ٢٥٩.

الخاتمة

تلك هي أهم ضوابط الرواية التي تمكن الباحث من استخلاصها من القرآن الكريم. وإن المتأمل لتلك الضوابط ليدرك مدى أهميتها في ضبط عملية رواية الأخبار ونشرها، لاسيما الأخبار والنصوص ذات الصبغة الشرعية، كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وإذا علمنا شدة تمسك أبناء القرن الأول الهجري، من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان، بتعاليم القرآن الكريم، وحرصهم على تطبيقها بشكل دقيق ومفصل، وصبغ حياتهم بها، أدركنا أثر تلك الضوابط في السلوك العلمي لأبناء ذلك القرن، الأمر الذي أدى إلى الحفاظ على روايات الحديث في ذلك العصر سليمة من التحريف أو التبديل، والزيادة أو النقصان، وذلك في إطار الحركة العلمية المباركة التي قام بها علماء الصحابة رضوان الله عليهم ومن تتلمذ على أيديهم من التابعين لهم بإحسان. تلك الحركة التي أولت عناية كبيرة لتحمل حديث رسول الله ﷺ وحفظه ونقله إلى الأجيال اللاحقة ملتزمة بتلك الأصول والمبادئ، حتى وصلتنا الأحاديث خالصة سليمة من تحريف المغرضين وتأويل الجاهلين. ويمكن تلخيص نتائج البحث في النقاط التالية:

١. اشتمال القرآن الكريم على عدد من الأصول الدينية والضوابط الأخلاقية التي يمكن أن تعد ضوابط مهمة لعملية الرواية، والتي تعين على الحفاظ عليها من الخطأ. وقد استنبط الباحث عشرة ضوابط، وقسمها إلى قسمين: خاصة وعامة.

٢. يمكن أن تعد تلك الضوابط النواة الأولى لما سمي فيما بعد علم "أصول الحديث" أو "مصطلح الحديث". فعلى تلك الأصول والمبادئ بنى علماء الحديث صرح علم الحديث.

٣. الرد على المستشرقين ومن نحا نحوهم من أبناء جلدتنا في زعمهم أن عملية الرواية في القرن الهجري الأول كانت تمضي حرة دون أي قيد أو شرط.

ويوصي البحث بالاهتمام بضوابط الرواية وتربية النشء المسلم عليها، لتؤدي دورها مرة أخرى في الحفاظ على المجتمعات المسلمة، وتهيئة الأجواء الصالحة التي تجعل الأمة المسلمة تتحقق بوصف الخيرية الذي وصفها الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]. فإن مجتمعا يتربى على هذه الأسس ويعمل على مراعاة تلك الضوابط في سماع الأخبار ونشرها لهو مجتمع نقي وسليم من الأمراض والآفات الناتجة عن عدم الالتزام بتلك الضوابط في عملية الرواية، كانتشار الأكاذيب والإشاعات، والعمل على نشرها وترويجها، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الثقة بكثير من مصادر الأخبار والمعلومات، وانتشار الفوضى والفرقة بين الأفراد المجتمعات، إلى غير ذلك من العلل والأدواء. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأثير الجزري، الإمام المبارك بن محمد. ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. *النهاية في غريب الحديث*. ط٢. بيروت: دار الفكر.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري. ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

أنيس، إبراهيم وآخرون. د.ت. *المعجم الوسيط*. دون مكان نشر.

البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. *صحيح البخاري*. تحقيق الدكتور مصطفى البغا. ط٣. بيروت: دار ابن كثير.

الترمذي، محمد بن عيسى. د.ت. *سنن الترمذي*. تحقيق أحمد شاكر وآخرين. بيروت: دار

---

[1] القرآن، آل عمران ٣: ١١٠.

إحياء التراث العربي.

الخازن البغدادي، علاء الدين علي بن محمد. د.ت. *تفسير الخازن "لباب التأويل في معاني التنزيل"*. بيروت: دار المعرفة.

الدمشقي، الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير. ١٤٠١هـ. *تفسير ابن كثير*. بيروت: دار الفكر.

الرازي، الإمام محمد بن أبي بكر. ١٩٨٧م. *مختار الصحاح*. بيروت: مكتبة لبنان.

الزحيلي، د. وهبة. ١٤١١هـ/١٩٩١م. *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*. بيروت: دار الفكر المعاصر.

السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر. ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. *الجامع الصغير من حديث البشير النذير*. ط٢. مكة المكرمة: مكتبة مصطفى نزار الباز.

السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر. ١٤١١هـ/١٩٩٠م. *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الطبري، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م. *جامع البيان*. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية.

عتر، نور الدين. ١٤٠١هـ/١٩٨١م. *منهج النقد في علوم الحديث*. ط٣. دمشق: دار الفكر.

العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. *تهذيب التهذيب*. بيروت: دار الفكر.

العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر. ١٣٧٩هـ. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار المعرفة.

القرطبي، الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد. ١٩٦٥م. *الجامع لأحكام القرآن*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

النووي، الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي. ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. *رياض الصالحين*. ط٣. دمشق: دار المأمون للتراث.

النووي، الإمام يحيى بن شرف. ١٣٩٢هـ. *شرح النووي على صحيح مسلم*. ط٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

النيسابوري، الإمام مسلم بن الحجاج. د.ت. *صحيح مسلم*. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

"*The Writers Dictionary*" (1974-76), London / New York, 1973.

"*Who's* is *Who*", An annual biographical dictionary, London, 1981.

"*Who was Who*" vol. viii, (1981-1990), London, 1991.

المقالات (Articles)

"Muslim Tradition: The question of authenticity", by James Robson, (*Memoirs and proceedings of the Manchester Literary & Philosophical Society* (*Manchester Memoirs*), 93, 1951/52).

"Non-Resistance in Islam", by James Robson, (*Transactions of the Glasgow University Oriental Society. Glasgow*, 9, 1938/39).

"Tradition: investigation and classification", by James Robson, (*The Muslim World*. Hartford. 41, 1951).

"Tradition, the second foundation of Islam", (*The Muslim World*. Hartford. 41, 1951).